المبحث الثالث

التوبة واليقين

التوبــة واليقــين

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

الحمد لله الذي خضع كل شيء لعظمتك، واستسلم كل شيء لقدرتك، وخضعت لك وخشعت لك القلوب، سبحانك وأذقت عبادك حلاوة حبك، سبحانك تعز من تشاء، وتذل من تشاء وتقرب من تشاء، كل شيء قائم لك وأنت قائم بنفسك .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ٢].

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١].

والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

أي: لقد كان لكم أيها المؤمنون في أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله قدوة حسنة تتأسون بها، فالزموا سنته، فإنما يسلكها، ويتأسى بها مَن كان يرجو الله، واليوم الآخر، وأكثرَ مِن ذكر الله واستغفاره، وشكره في كل حال.

اللهم إنا نحبك كثيرًا؛ فاقبضنا وألسنتنا رطبة بذكرك كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

أي: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، اذكروا الله بقلوبكم

وألسنتكم وجوارحكم ذِكْرًا كثيرًا، واشغلوا أوقاتكم بذكر الله تعالى عند الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضات، وعند العوارض والأسباب، فإن ذلك عبادة مشروعة، تدعو إلى محبة الله، وتكف اللسان عن الآثام، وتعين على كل خير.

الإنسان ما أجمله أن يكون على الحالة اليوسفية، أي: يتثبت ولا يقع في المعاصي، ويظل أبيضا، ولا يصل إليه الشك والارتياب، وعدم التصديق، أو يعترض على حكم الله فيبقى قلبه نقيًّا، كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٩]. أي: إلا مَن أتى الله بقلب سليم من الكفر والنفاق والرذيلة.

معنى السليم من الآفات، أي: نقي لا يتلوث، ليس هناك حقد وغل لما في يد الآخرين، هذا هو القلب اليوسفي، وعندما يكون خائفًا على نفسه وقلبه من التلوث والزوغان.

لقد تاب الله جل في عُلاه على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٧].

لقد وفَّق الله نبيه محمدًا ﷺ إلى الإنابة إليه وطاعته، وتاب الله على المهاجرين الذين هجروا ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وتاب على أنصار رسول الله ﷺ الذين خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة (تبوك) في حرٍّ شديد، وضيق من الزاد والظَّهْر، لقد تاب الله عليهم من بعد ما كاد يَميل قلوب بعضهم عن الحق، فيميلون إلى الدَّعة والسكون، لكن الله ثبتهم وقوَّاهم وتاب عليهم، إنه بهم رءوف رحيم، ومن رحمته بهم أنْ مَنَّ عليهم بالتوبة، وقَبِلَها منهم، وثبَّتهم عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة:١١٧].

والتوبة هنا بمعنى: الفرج والفتح القريب والتأييد من الله تعالى، ولا ينبغي أن نفهم أن الله تعالى تاب على النبي ﷺ، أي: أن النبي يقع في المعاصي، لا. وعفا الله عنك يا نبى الله، هذه آيات عتاب في القرآن الكريم لها أسرار سوف نشرحها لاحقًا.

فاحذر أن يزوغ قلبك، هذه لحظة صعبة جدًّا، والزوغان يأتي من الاستعجال، كل شخص عنده فزع وهلع عندما يدخل في الصلاة لا يخشع، وعندما يقرأ في ورده اليومي يكون مستعجلاً هكذا يسلب النور من القلب؛ لأنه لا يتمعن ولو تمعن لارتقى، ولكنه يقف أول الطريق ولا يريد أن يواصل، كما قال بنو إسرائيل لسيدنا موسى عليه السلام: إنا ها هنا قاعدون، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤].

أي: قال قوم موسى له: إنا لن ندخل المدينة أبدًا ما دام الجبارون فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا، أما نحن فقاعدون ها هنا ولن نقاتلهم، وهذا إصرارٌ منهم على مخالفة موسى عليه السلام، ليس عندنا همة ولا عزيمة أو رغبة في الحركة، إنا ها هنا قاعدون.. سلبية بشرية، هكذا حالة بني إسرائيل حينما أمروا أن يدخلوا أرض فلسطين، ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤].

وتلك رغبة في عدم الجهاد في سبيل الله، وحالة ضعف، واستكانة ولكن اتباع الأنبياء لا يتولد عنه ضعف ولا استكانة، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

أي: كثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لِما نزل بهم من جروح أو قتل؛ لأن ذلك في سبيل ربهم، وما عَجَزوا، ولا خضعوا لعدوهم، إنما صبروا على ما أصابهم، والله يحب الصابرين، ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي: عندهم ثبات ويقين، هذه سمات الصادقين مع الله، ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١١٧].

لابد أن تقف عند هذه الآية، فعندما يشتد عليك البلاء والعسرة، وتشتد عليك وتغيب، لا تحزن وتقول: ماذا فعلت يا رب في حياتي؟ انظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه تقطعت في رحلة تبوك أكباد الرجال والنساء، وما وجدوا ماء يشربون، وكانوا يشربون أبوال الإبل بعدما يبقرون بطنها حتى

جاء الفرج والفتح، روى أبو هريرة ﷺ قال: «لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: **افعلوا**... »[1]، ولكن متى جاءهم الفرج والفتح، بعد رفاهية وتعجل؟ لا، ولكن بعد ساعة العسرة، فكلما جاءت لك العسرة استبشر بالخير، ولا ينبغي أن تعيش في يسر دائم، لأن المسلم بين يسر وعسر، وأفضل العبادة انتظار الفرج، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ﴿**ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١١٧].

أي: أن القلوب أوشكت أن يأتيها زوغان وتريب، أي: عندما يشتد البلاء، ويتأخر الفرج لعلة، والعلة لا تعرفها.. تعرفها متى؟ حال موتك.

فتقول: يا رب ليتك رددتني؛ وكان البلاء مضاعفًا فبصرك اليوم حديد، أي: صار بصرك نافذًا وقويًّا، وكان من قبل الأمور محجوبة عنك؛ لذلك فلا تحزن عندما يتأخر الفرج عنك، ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١١٧].

أي: جاءهم الفرج والفتح والبركة مرتين ببركة رسول الله ﷺ، فالمسلم إذا كان على قلب سيدنا يوسف عليه السلام وثباته ويقينه ونفس الحالة الإيجابية العالية، فإن المسلم يستعين بربه ويستجير به، قل من بيده ملكوت كل شيء؟ هو الله سبحانه وهو يجير - أي الله ﷻ - ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، فيقولون لله ﷻ في قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ**﴾ [يوسف: ٣٣].

أي: قال يوسف مستعيذًا مِن شرهن ومكرهن: يا ربِّ، السجنُ أحب إليَّ مما يدعونني إليه من عمل الفاحشة، وإن لم تدفع عني مكرهن أَمِلْ إليهن، وأكن من السفهاء الذين يرتكبون الإثم لجهلهم.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد، رقم الحديث: ٤٠.

فإذا أراد الله بعبد خيرًا فيذكره بما يفعل وينبهه، كما في سورة يوسف كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أي: قل لهم أيها الرسول هذه طريقتي، أدعو إلى عبادة الله وحده على حجة من الله ويقين، أنا ومن اقتدى بي، وأنزِّه الله ﷻ عن الشركاء، ولستُ من المشركين مع الله غيره.

والنبي العظيم ﷺ عندما هاجر إلى المدينة كانت هناك حالة من النقاء والشفافية القوية عند المهاجرين والأنصار، وتحدث عنها الملك في سورة الحشر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

هذه صفات قلبية لا يقولها إلا الملك؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار**»[1]، لماذا رسول الله ﷺ حبَّ الأنصار؟ لأنهم ضربوا أروع الأمثلة في النقاء كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ ... ﴾ [الحشر: ٩].

أي: الذين عاشوا الإيمان بالفعل، وخالط الإيمان قلوبهم ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ الصحابي الأنصاري عنده زوجتان، ويقول لصديقه المهاجر: اختر واحدة منهن هي لك، فجعل الله قلوبهم رقراقة، ويؤثرون على أنفسهم، مرتبة الإيثار لا تجد إنسانًا يؤثر غيره على نفسه، فمن آثر غيره على نفسه فعنده حب ونقاء وحب الناس كما علمتنا يا رسول الله ﷺ.

ما كان النبي يأكل وأهله جوعى، حتى التمرة كان يتقاسمها معهم .

---

(١) مسند الإمام أحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري ﷺ، رقم الحديث: ١١٣٠٥.

إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يعتب على ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عندما ذهب إلى الجزار؛ ليشتري لحمًا وخادمه يمشي وراءه، واللحم على كتفه فنادى عليه عمر: أين تذهب؟ وهل يطيب لك أكل اللحم والناس جوعى، حولك؟ فقال: إنى أحب أكلها، والمال معي، وهي من تعبي، فقال له: هذا لا يحل لك، لا تأكل إلا مما يأكل الناس، فأنت والناس سواسية، وأمر ابنه أن يعود باللحم إلى الجزار مرة ثانية، ويقول له: هل كل الناس يأكلون مثلك؟ فيقول له: لا، كيف لك أن تأكل والناس لا يأكلون مثلك؟ .. هذه مرتبة من النقاء العالي العظيم .

اللهم، إن رجائي عفوك عن ذنوبي، وتجاوزك عن خطيئتي، أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوك خائفًا، وأسألك راجيًا، وإنك لَلْمُحسن إليَّ، وإني لَلْمُسيء إلى نفسي، فيما بيني وبينك، تتودد إلي بالنعم، واتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك، فجد بفضلك وإحسانك عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم، لا إله غيرك، أنت بديع السموات والأرض، لا إله غيرك، وليس قبلك شيء، أنت الدائم غير الغافل والذي لا يموت، يا رحمن، يا رحيم، يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت.

اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد فى كل حين، عدد أضعاف صلوات المصلين، وعدد أضعاف ذكر الذاكرن، اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد أشرف المرسلين، عليه وعلى صحبه أجمعين.